بشار بن برد ناثرا
قراءة في تعدد الفنون الإبداعية من مبدعٍ واحد

إعداد:

د.عبدالكريم بن عبدالله العبدالكريم

الأستاذ المشارك في قسم الأدب-كلية اللغة العربية-جامعة الإمام

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإنَّ حركة الشعر العربي منذ أن بَزَغَت وَلُوْدٌ بشعراء نابغين، ومؤثرين حَفِظَت كتب التراث نماذج من أشعارهم، وتغنَّى النقاد بإبداعاتهم، وكشفوا سَبْقهم، وألَّفُوا كتباً في منزلتهم، وطبقاتهم، فلمَعَ في كل عصر شعراء، ونَحَتَ فئام منهم أسماءهم في ذاكرة الشعر العربي على مرِّ العصور، ومن هؤلاء بشار بن برد ت ١٦٨هـ الشاعر المشهور .

ولست معنياً –هنا– بشاعريته، فقد كُفِيْتُ هذا الأمر من علماء أجلاء، ودارسين حاذقين، غير أنَّ هاجسي الأكبر في هذه المقالة العلمية هو نثر الشاعر، هل هو نثرٌ يقارب قامته الشعرية، ويلتقي مع موضوعاته، وتجربته الشعورية، وهل المواهب الفنية تتكافأ في الإبداع، أم تَتَمايز في فنٍ دون آخر ؟ وماذا عن ممارسة المبدع لأكثر من فنٍّ أدبي؟ وهل الشاعر في نثره كما في شعره من حيث التنميق والتصوير، واحتذاء مسلكٍ فني محدد؟ وهل اعتنى النقاد بنثر الشعراء عنايتهم بشعرهم؟ أسئلة مشروعة دارت في ذهني منذ زمن بعيد، فقادتني قراءة أجزاء من كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ت٣٥٦هـ إلى نماذج ليست قليلة من ترسُّل الشعراء، ومقولاتهم النثرية اللافتة حتى إن بعضهم يَصْدُق تلقيبه بـ (صاحب الصناعتين) .

وبعد قراءتي بحث الأستاذ الدكتور أحمد درويش الموسوم بـــ (نثر أمير الشعراء وموقعه من ثقافته وعصره)[١]وحديثه المهم عن إهمال الجانب النثري في تراث شوقي، وأن جلَّ المتن النقدي "الذي يدور حول تراث شوقي يكاد يدور في إطار نقد الشعر وحده"[٢] أقول : وبعد قراءتي هذا البحث زادت قناعتي أنَّ نثر الشاعر يستحق الدرس، والتأمل، وأنه فرصة ملهمة للباحثين أن يتَمَعَّنُوا فيه، ويُقَايسُوا بينه وبين مستوى الشعر، وأن يبحثوا في القوى الإبداعية الكامنة في نفس المبدع، وامتدادها إلى فنون أُخرى.

وفي الأدب القديم تواترت إلينا مقولات عديدة، تناقلتها كتب الأدب والتأريخ لشعراء كبار، مرَّت علينا في ميدان دراسة حياة الشاعر، أو تأريخ عصرٍ أدبيٍ من دون الالتفات الكبير إلى قيمتها الفنية، وعلاقتها بشعر الشاعر، ومن منا لا يذكر مقولة امرئ القيس حين بَلَغَه قتل والده : " ضيَّعني صغيراً، وحمَّلَني دمه كبيراً، لا صَحْو اليوم، ولا سُكْر غداً، اليوم خَمرٌ، وغداً أمْرٌ"[٣].أو مقولة عنترة حين طلب منه والده الإقدام في

---

[١] –البحث نُشر في مجلة العربي ، العدد ٦٤٧، سبتمبر ٢٠١٢م.

٢–السابق.

[٣]–الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٩٨/٨.

الحرب، فقال: كُرَّ ياعنترة، فأجابه "العبد لا يُحسِن الكرَّ، وإنَّما يُحسِن الحِلابَ والصَّرَّ"[١].

وقد التفت الجاحظ ت ٢٥٥هـ التفاتةً سريعة إلى ظاهرة تعدد الفنون من مبدعٍ واحد، وأشار إلى بعض من جمع بين إجادة الشعر، والرجز، والخطب، فقال: "وكان الكميت والبَعيث والطِّرماح شعراء خطباء، وكان البعيث أخطبهم.وقال يونس: لئن كان مغلَّباً في الشعر لقد كان غَلَبَ في الخطب. وإذا قالوا :غلَّب، فهو الغالب"[٢].

وتوقف مع عددٍ من الخطباء الشعراء، من مثل حديثه عن كلثوم بن عمرو العتَّابي ت٢٢٠هـ فقال : "ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة، والشعر الجيِّد، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتَّابي، وكنيته أبو عمرو..."[٣]. وسيأتي حديثه عن بشار بن برد.

ولا يخلو النقد الحديث من إشارات لظاهرة الشاعر الناثر ، فأحدهم يكتب عن بدوي الجبل ١٩٨١م مقالة عنوانها : (بدوي الجبل بين الشعر والنثر) ويشيد بنثر بدوي، واقترانه بالصياغة الشعرية للشاعر، ويصفه

١-شرح المعلقات التسع ، لأبي عمرو الشيباني ويليه معلقة الحارث اليشكري، تحقيق: عبدالمجيد همّو:٢١٤.

٢-البيان والتبيين، للجاحظ: ٨٤/٤.

٣-السابق:٥١/١.

بالشاعر المطبوع، والناثر الأنيق في محاولة لرصد منبع الإبداع الواحد في فنين أدبيين[١].

وكاتبٌ آخر يكتب عن أمين نخلة ت١٩٧٦م مقالة عنوانها (أمين نخلة شاعر النثر) ويصف فيها أميناً بقوله : "...كان شاعراً كبيراً، كما كان ناثراً كبيراً، وهناك من يُفضِّل نثره على شعره، رغم أنه أحد الشعراء اللبنانيين، والعرب المتميزين في زمانه..."[٢].

ونثر الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري ت ١٩٩٧م يستوقف باحثاً آخر، فيُسَجِّل ملحوظة مهمة على نثر الشعراء ، فنثرهم نابعٌ من رحم إبداعٍ واحدة ، وجرس الشعر يَسْرِي إلى النثر، فيكتسي رونقاً وجمالاً أخَّاذاً. يقول : "وفي ظني أنَّ نثر الشاعر يمتاز على نثر الكاتب، ويرقى فروٰى الشاعر، وصوره لا تفارقه حين يكتب نثراً، وإحساسه المتأصل بالوزن والموسيقى يظلُّ يقود قلمه ، ويهديه بعفوية وسلاسة ، ولا أدلُّ على ذلك مما نجده من أسلوبٍ راقٍ متميزٍ في المقالات التي يحرِّرها شعراء مثل:نزار قباني، وأدونيس، ومحمد بنيس، أو النصوص النثرية التي كتبها عبدالوهاب البياتي عن تجربته الشعرية، والجواهري

١-انظر : مقالة بدوي الجبل بين الشعر والنثر، عبداللطيف الأرناؤوط، مجلة الباحثون، العدد ٤٠ تشرين الأول ٢٠١٠م.

٢-مقالة أمين نخلة شاعر النثر ، جهاد فاضل، جريدة القبس الكويتية،العدد ١٤٨٣١، ١١ أغسطس ٢٠١٤م.

شاعرٌ متمرسٌ بكتابة النثر كذلك منذ سنوات شبابه، وكان لمقالاته صدى لا يقل عن صدى قصائده الوطنية السائرة على ألسنة الجماهير"[١].

وبشار بن برد العقيلي قامةٌ من قامات الشعر العربي " وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء"[٢] عُرِفَ في تأريخ الأدب العربي بالشعر، وقُدِّم لشاعريته، وتواردت شواهده الشعرية في دواوين الأدب الشهيرة، حتى لا تكاد تطَّلعُ على مدونة أدبية إلا وجدت أبياته حاضرة هنا، أو هناك ، وبقي نثره متوارياً عن أنظار الكثيرين ، وحين جمع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ت١٣٩٣هـ ديوانه أشار في مقدمته إشارةً مهمة إلى مكانته في النثر، فقال : "لم يكن انقطاع بشار إلى الشعر، وإجادته فيه بالذي يَقْصُرُ به عن سمو المنزلة في الترسل والخطابة"[٣].

واعتمد ابن عاشور في إشارته على مقولة الجاحظ ت٢٥٥هـ في "البيان والتبيين" التي ذكر فيها بشاراً بقوله: "ومن خطباء الأمصار وشعرائهم والمولدين منهم :بشار الأعمى... وكان شاعراً راجزاً ، وسجَّاعاً خطيباً، وصاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة"[٤]. وأورد

١-العراق في القلب "دراسات في حضارة العراق" د.علي القاسمي :٢٠١.

٢-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان :٢٦٥/١.

٣-ديوان بشار بن برد ، جمع وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور :١٠٣.

٤-البيان والتبيين، للجاحظ :٤٩/١.

الطاهر نماذج قليلة من نثر بشار من دون تحليلٍ عميق، أو محاولةٍ لربطها بقيمة شعره، ولا تثريب عليه؛ فقد كان همه متجهاً لجمع الشعر وتحقيقه.

ولم تكن إشارة الجاحظ إلى نثره هي الإشارة اليتيمة، فقد عَبَرَت إلينا إشاداتٌ بنثر بشار التَقَطتُها من مدونات الأدب القديمة والنقد ، من ذلك ماقاله الحصري ت ٤٥٣هـ في حديثه عن بشار : "وكان بشارٌ حَاضِرَ الجواب، سجَّاعاً، خطيباً، صاحب منثور ومزدوج، ورجز، ورسائل مختارة على كثير من الكلام"[١].

ويُروى عن الأصمعي ت ٢١٦ه أنه قال لبشار : "يا أبا معاذ، إنَّ الناس يَعْجَبُونَ من أبياتك في المشُورة. فقال: يا أبا سعيد، إنَّ المُشاور بين صوابٍ يَفُوزُ بثمرته، أو خَطَأ يشارك في مكروهه.فقلت له : أنت والله في قولك هـذا أشعر منك في شعرك"[٢]. فإجابة بشار أذْهَلَت الأصمعي ؛ حيث كان معجباً بأبياته في المشورة، وَوَجَد أنَّ جوابه السريع اخْتَزَلَ فائدة المشورة ، وأوجزها في عبارة جامعة مانعة، فكانت نتيجة الاندهاش والإعجاب هي مفاضلة الأصمعي بين أبياته الذائعة، وعبارته الجامعة، فجعل الثانية تَرْجُحُ بالأولى في حُكْمٍ لا يخلو من

١-زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري، ضبط: د.زكي مبارك :٤٧٤/٢.

٢-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٢٩/٣.

عاطفة الإعجاب الآني، والاندهاش من وقوعه على منبع جديد من منابع إبداعه.

والمرزباني ت ٣٨٤هـ ينقل نصاً يثبت فيه براعة بشار في الخطب، فهو " أستاذ المحدثين، الذين عنه أخذوا، ومن بحره اغترفوا، وأثره اقتفوا...مع براعةٍ في الشعر والخطب"[١].

إنَّ هذه الإشارات – على قلتها – دالةٌ على أنَّ بشار بن برد يملك موهبة إبداعية غير الشعر، وأن في نثره سانحةً للبحث، والمقايسة، والمقارنة، وقد استحثتني هذه الكلمات، وغيرها على التنقيب في مدونات الأدب، فوجدت نماذج من نثره توازي إشادة النقاد، والدارسين، ويبدو أنَّ العناية بشعر بشار، صرفت النظر عن رواية نثره، وترسُّله ، فجمعت بعض نثره، فوجدته مُلهماً لدراسة نثر الشعراء، وبدا لي أن أتساءل عن نثرهم هل هو نثرٌ يتقاطع مع أشعارهم، وينبت من البذرة نفسها؟ فيكون نثراً تَلْمَحُ فيه منهج الشاعر، وصوره، ولغته...، وهل هو في منزلته الشعرية كما النثرية؟ هذه التساؤلات تلحُّ عليَّ أن أفتح نافذة من نوافذ البحث الأدبي ، وأن أطرق باباً من أبواب النقد في التراث القديم، وألفِتَ الباحثين إلى جادةٍ طريفة في ميدان البحث الأدبي.

١-الموشح ، للمرزباني :٢٩٠.

وعند فحص المدونة النثرية التي جمعتها لشاعرنا أجده قد طَرق عدداً من الأجناس الأدبية، وكان من ألمعها تلك الأجوبة المسكتة، المعتمدة على الحذق، والذكاء،والإفحام[١]، والمُتَّسِمة بالاختزال ، والتركيز، وحسن العبارة، وبشار بذكائه المُتَّقِد، الذي نَسَبَهُ إلى عاهة العمى حين قال [٢] :

عَمِيتُ جَنِيناً والذَّكاءُ مِنَ العَمَى فجِئتُ عجيبَ الظَنِّ للعِلمِ مَعْقِلا

أقول : إنه بذكائه المُتَّقِد، وبنفسيته القَلِقة، وفُجُوره المتواتر، الذي صوَّره طه حسين ت١٩٧٣م بصورة "رجلٍ كَرِه كل شيء وازْدَرَاه، فهو لا يحبُّ إلا نفسه، ولا يُعجَب إلا بنفسه..."[٣]استطاع أن يجعل من أجوبته المفحمة حصناً من حصون خشية فجوره ، واتقاء فحشه ، فكانت أجوبته غاية في القسوة، والفحش، وآيةً على ذكائه، وسرعة جوابه، فمثَّلت لوناً من ألوان نثره، كما في قوله لامرأةٍ استَبْشَعَت صورته، وقارنت أبياته الذائعة بمنظره البذيء فقالت مذهولة مندهشة: "ما أدري

١-انظر : مقدمة كتاب الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، تحقيق : د.مي أحمد يوسف :٣٧.

٢-ديوان بشار:٤/١٣٦.

٣-حديث الأربعاء، طه حسين :٢٠١.

لِمَ يَهَابُكَ النَّاس مع قُبْحِ وجهك، فقال لها بشار: ليس من حُسنه يُهَابُ الأسد"[١].

ومن الأجناس النثرية المروية في مدونات الأدب لبشار بن برد الرسائل، كما في تعزيته لأخٍ له، حيث قال: "أما بعد، فإنَّ أحق ما اغتنمنا حُلوَه، وصَبَرْنَا على مُرِّه، واسْتَدَمنَا مكروهه، ونَافَسْنَا فيه أهله، وأحقُّ ما أغْلَقنَا أبوابه ، وصِرْنَا إلى أسبابه، وزَهدْنَا في وُدِّه، ومللنا فجائعَه، الدنيا التي لا يَدوم نَعيمُها، ولا تُؤمن فجائعها..."[٢].

وتجد في محاوراته، ومقاولاته الآنية لوناً من ألوان الإبداع ، والتنميق الفني العالي، وعفويتها وآنيتها لا تتعارض مع كونها داخلة ضمن دائرة النثر الفني؛ إذ إنَّ جلَّ النصوص الأدبية القديمة شعرية ونثرية صدرت عفو الخاطر، وطوع السَّجية، واستدعاها الأديب في حينها، وإلا لما رصد النقاد ظاهرة (عبيد الشعر) ممن عنوا بالتنقيح، وإبقاء القصيدة حولاً كاملاً؛ يمعنون فيها النظر، ويكررون القراءة،

---

[١]-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني:٣/٣٦.

٢-البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي:٢/٢٤٢.

ويحذفون ويضيفون حتى تستوي القصيدة على سُوْقِهَا، وتُعْجِبُ المتلقين[١].

وقد رَصَدَتْ مدونات الأدب عدداً من تلك الحوارات والأقوال لبشار بن برد، وأحسب أن اختيارها دالٌ على جمالها المضموني، أو الأسلوبي، ومن ذلك مثلاً قوله : "الإنسان لا يَنفَكُّ من أملٍ، فإن فَاتَه الأمل عوَّل على المُنى،إلا أنَّ الأمل يَقَعُ بسَبَب، وباب المُنى مَفْتُوحٌ لمن تَكَلَّفَ الدُّخُول فيه"[٢].

ومن ذلك ما رُوي أنَّ رجلاً ادَّعى الشعر، واستبرده قومه، فقال لهم : "إنَّما تستَبرِدوني من طريق الحسد، فقالوا :بيننا وبينك بشار العقيلي. فارتفعوا إليه، فقال : أنشدني، فأنشده، فلمَّا فرَغَ. قال بشار: إني لأظنك من أهل بيت النبوة ! قال له: وما ذلك؟ قال: إن الله تعالى يقول: وما علمناه الشعر وما ينبغي له. فضحك القوم، وخرجوا عنه"[٣].

١-انظر مناقشة قضية الآنية والعفوية في النثر، وهل داخلة ضمن النثر الفني أم لا؟ في كتاب : أدب الصحراء، د.عبدالله بن سليم الرشيد: ٢٢-٢٣، وبحث : (الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ) د.عبدالكريم بن عبدالله العبدالكريم، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٥٩، ١٤٣٣هـ:٤٦٢.

٢-مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم:٣/٢٢٤.

٣-العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق عبدالمجيد الترحيني: ٦/٢٢٩.

وتجاربُ الحياة، وسَبْرُ أغْوَارِها ، وما مرَّ ببشار من ظروف مختلفة جعلت الوصايا النقدية والحياتية من ضمن الأجناس النثرية التي بَزَغَت في نثره، وعكست لوناً هادئاً، خالصاً من السخط، والاستهزاء، ويبدو أنه قيل في لحظة من لحظات التأمل، والسكون النفسي، وأوبة النفس إلى حقيقتها، من ذلك قوله: "لا تَجعَلوا يومنا حديثاً كُلُّه، ولا غناء كُلُّه، ولا شراباً كلُّه، تناهَبُوا العيش تناهُبَاً، وإنما الدنيا فُرَص"[١].

واكتَسَت أغلب مضامين نثر بشار بالحدَّة، والاستنقاص، وشدة الهجاء، وهذه المضامين نابعةٌ من شخصيته الموسومة بسوء الخلق، وسرعة الغضب، ومبادرة الهجاء، فبشار " قوي الردِّ على مَن خَالَفَه، كثير المحادثة، كثير فَلَتَات اللسان، وكان بذيء اللسان، شديد الأذى"[٢].

ويعزو الدكتور طه حسين ت ١٩٧٣م هذه النقمة، والازدراء إلى أسباب من ألمعها: العمى ، الذي كان مصدراً من مصادر حرمان اللذة، والاستمتاع " أضف إلى هذا أنَّ حياة بشار تَدُلُّنَا على أنَّ أهل عصره لم يكونوا أرقاء، ولا حريصين على الرفق، وحسن الأدب، وإنما كانوا يسخرون من بشار، ويعبثون به، ويُسرفون في ذلك...فكان هذا كله

١-البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي: ٥/٢١٩.

٢-مقدمة ديوان بشار بن برد ، تحقيق وجمع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ٢٠.

مصدراً لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق، وشدة البغض للناس، والموجدة عليهم، وإضمار الشر لهم، والإسراف في السخرية منهم"[١].

وفي ردوده المفحمة ، وحدَّة جوابه، وغلوه في الاستنقاص يُقْفِلُ المُحاور الحديث، ويُغلق النص، وربما خشي المتلقي من الاستزادة، وتجاوز حدود الدين، والنيل من حرمته، وإن كان بشار لا يُلْقِي بالاً كبيراً لخطوط الدين الحمراء ، ولا يَهَابُ من حرمتها، وحين بادره محمود الوراق بسؤاله عن الصلوات التي تركها بادره باستهتار واضح : "إنَّ الذي يَقْبَلُها تَفَاريق، يقبلها جُمَلاً"[٢] وحين سُئل عن آثر متاع الدنيا عنده. فقال : " طعامٌ مُز، وشَرَابٌ مُرٌّ، وبنتٌ عشرين بكر"[٣].

وفي تضخم (الأنا) في نفس شاعرنا أثرٌ واضح في نقمته، واستنقاصه لمن حوله، والشعور برهبتهم منه، وخوفهم من لذعاته الشعرية، أو النثرية، "ولعلَّ تضخم الذات مُتَأتٍ نتيجة الأثر السلبي الذي تتركه عاهة العمى في نفس بشار وما تنطوي عليه المواضعات الاجتماعية من إشفاق، وضعف التقدير له من الآخرين ، واختلال القيم والمعاملات تجاهه، ولا وسيلة له للهرب من وطأة هذه الحياة

١-حديث الأربعاء، طه حسين :١٩٠.

٢-وفيات الأعيان، لابن خلكان: ٣٨٤/١.

٣-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني : ٤٩/٣

من حوله كما يفعل أشقاؤه المبصرون إلا بالانكفاء على ذاته وتضخميها كي يشعر بالاتزان الاجتماعي..."[١].

وهذا يفسر بروز الاستنقاص اللاذع لمن حوله في بعض مقاولاته النثرية ، من مثل قوله للأخفش لمَّا هَاب هجاءه : "وَهَبــتُهُ للوَمِ عِرْضِهِ"[٢]. وينتقي–في أحيان غير قليلة– ألفاظاً خادشة،كان بإمكانه أن يجد غيرها، لكنَّ انتقاءها يؤكد نفسيةً غير سويَّة، فحين سُئل عن شعر النساء قال : "لم تَقُل امرأة شعراً قطُّ إلا تَبيْنَ الضَّعفُ فيه، فقيل له : أو كذلك الخنساء؟! فقال: تلك كان لها أربع خُصى"[٣].

وينزع في مضامين نثره إلى الحديث عن الشعر، ونقده ، والمفاضلة بين الشعراء، وتقديم بيتٍ على آخر، وقصيدةٍ على أُخرى، وهو في نقده يمثل أنموذجاً للناقد الحصيف، والخبير بالشعر، وخباياه. ونقده لا يخلو من جماليات تصلح أن تُسْلَكَ في مسلك الخطاب الفني للنقاد ، فحين مدح المهدي ت ١٦٩هـ ، لم يعطه شيئاً، فقيل له إنما حَرَمَك لأنه لم يَسْتَحسن شعرك ، فأجاب: "لا والله، لقد مَدَحتُهُ بشعرٍ لو قُلتُ مثله في

١–البواعث النفسية في هجاء بشار بن برد، معتز قصي ياسين،بحث منشور في مجلة دراسات البصرة، العدد ١٥، ٢٠١٣م.

٢–الموشح ، للمرزباني، تحقيق : محمد حسين شمس الدين :٢٨٧ .

٣–الكامل، للمبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي: ١٣٩٧/٣.

الدهر لما خيف صَرْفَه على حُرٍّ، ولكني أَكْذِبُ في العمل، فأكذبُ في الأمل"[١].

ويُجمِل فلسفته الشعرية، وطريقته في النظم، وتفوقه على أقرانه، بعبارةٍ تشي بتجربته الشعرية، وتختصر مذهبه في نظم الشعر، وفي طياتها نصحية مختزلة لتجويد الشعر... وذلك حين سئل : "بِمَ فُقتَ أهل عمرك، وسبقتَ أهل عصرك في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأني لم أقبَل كلَّ ما تُوردُه عليَّ قريحتي، ويُنَاجيني به طبعي، ويَبْعَثُهُ فكري، ونَظَرتُ إلى مَغَارس الفطن، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات، فسِرتُ إليها بفهمٍ جيد، وغريزةٍ قوية، فأحكمتُ سَبرَهَا، وانتقيتُ حُرَّها، وكَشَفتُ عن حقائقها، واحترزتُ من مُتَكلَّفِها، ولا والله مَا مَلَكَ قيادي قَطُّ الإعجابُ بشي مما آتي به"[٢].

فهو يضع عدداً من مرتكزات التفوق الشعري، ويُلَخِّصُ تجربته التي تعتمد الانتقاء الدقيق، والفهم الحصيف، فهو يُعمِل عقله، ويمعن النظر في فكرته الشعرية قبل أن يصوغها، ويتجه إلى دقائق الفكر، ويتأمل في

---

[١]-زهر الآداب، وثمر الألباب، للحصري، ضبط :د.زكي مبارك :٦٨٨/٣، وروي أيضاً بعبارة قريبة في :الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، تحقيق: د. مي أحمد يوسف:١٠٨.

[٢]-زهر الآداب، وثمر الألباب، للحصري، ضبط :د.زكي مبارك :١٥١/١.

صياغة الصور والتشبيهات، ويضيف إليها، ولا يكررها ، فإذا تمكَّن من الفكرة ، نهض إلى مرحلة الصياغة، وهي مهمة أُخرى أكَّد فيها على الكشف، وتَجَنُّبَ الوصف، وأكَّد فيها على التحرُّز من التَّكلف، والتصنع، ومع هذا المخاض العسير في صناعة الشعر يختم مقولته قائلاً: "ولا والله مَا مَلَكَ قيادي قَطُّ الإعجابُ بشي مما آتي به" فالقسم دالٌ على مثالية الشاعر في تجويد شعره، وفيه ملمحٌ من ملامح النضج الشعري، كما يمكن للقارئ أن يقرأ نفَسَاً متعالياً ، وغروراً لا يستغرب من بشار، فالسائل يشير إلى تفوقه، وسَبقه، ويقابله بشار بعدم الإعجاب بهذا المخاض، والصناعة الطويلة.

وفي تفضيله الخنساء ت٢٤هـــ استخدم لغةً مَزَجَت بين التصوير ، والسخرية وربما استخدام صورة ساقطة، لكن استخدامها –مع سقوطها– كان مُفْعَمَاً بالإعجاب بشعرها، وتقديمها، وربما قاده السياق إلى استخدام هذه اللغة؛ فانتقاد شعر النساء انتقادٌ عامٌ لمجموع الشعر النسوي :"لم تَقُل امرأة شعراً قطُّ إلا تَبين الضعف فيه" ثم جاء السؤال عن الخنساء ، فاتجه الخطاب إلى حالةٍ خاصة، وتجربة محدَّدة، فكانت إجابته مشوبةً بالاستنكار على السائل، والاستغراب من سؤاله عن شاعريتها الظاهرة، فقال: "...تلك كان لها أربع خُصى"[1] ولازم قوله تفضيلها على عددٍ كبير من الشعراء المشهورين، وقَارَبَ في تشبيهه

١– الكامل، للمبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي: ١٣٩٧/٣.

بإثبات فحولتها ، والفحولة مصطلح نقدي استخدمه الأصمعي ت ٢١٦هـ في تقديم الشعراء، والمفاضلة بينهم في كتابه الشهير "فحولة الشعراء" والفحل من الشعراء من له مزية على غيره، "كمزية الفحل على الحقاق"[١]، فعمد بشار إلى التصوير المستحيل؛ ليرد على السائل باستنكار واستغراب، وليثبت سَبق الخنساء، وشاعريتها الظاهرة.

ويُفسِّر بشار اتجاهه لغرض الهجاء موازناً بينه وبين المديح بقوله: "إنني وجَدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر عن المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يُكْرَم في دهر اللئام على المديح، فليستعد للفقر، وإلا فليُبَالغ في الهجاء؛ ليُخَافَ فيُعطَى"[٢].

وفي هذا النص القصير ملخصٌ لفلسفته الهجائية، فالعطاء مُرْتَكَزٌ أساس في تفضيله الهجاء على المديح، ثم إنَّه اشترط في الهجاء الإقذاع "فليبالغ في الهجاء" رغبة في تعميق الخوف من هجائه، والإرهاب به، وإجزال العطاء ؛ لاتقاء لسانه الفاحش، أمَّا المديح في ميزان بشار فهو استجداء في دهر اللئام على حدِّ قوله، وهو مظنة الفقر، فهو يأخذ العطاء بمنطق القوة، والتخويف، وهذا القول دالٌ على نفسٍ ممتلئةٍ باللؤم والفحش، وكاشفٌ من جانب آخر عن استعلاء، وتكبُّر، وترفُّع عن الاستجداء، وبذل الوجه في سبيل النَّوال.

١-فحولة الشعراء، للأصمعي، تحقيق :محمد عبدالمنعم خفاجي:٣٤.

٢-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني : ٣/٥١.

وبشار يجمع بين الإبداع الأدبي، والقدرة الفائقة على النقد، وهو معدودٌ من الشعراء النقاد، فتجد في إجاباته الكثيفة ملحوظات نقدية مهمة، جديرة بالعناية والاهتمام صيغت في قوالب إبداعية، قمينة بالالتفات إليها في الخطاب النقدي الإبداعي، ومن إجاباته النقدية الدقيقة، ماجاء في معرض السؤال عن تفاوت شعره ، فهو القائل:

أبَى طَلَلٌ بالجِزْعِ أنْ يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيَّما

وهو القائل أيضاً:

ربَابةُ ربَّةِ البيتِ تَصُبُّ الخلَّ في الزيتِ

لها عَشرُ دَجَاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصوتِ

فقال بشار : "إنَّ الشاعر بمنزلة البحر يقذفُ بحوتٍ، وصدفةٍ، وحيَّة، فإنَّما القدرة على الشعر أن تَضَع الجدَّ في موضعه، والهزل في موضعه، وأمَّا لُبَابة هذه فجارتي حضضتُهَا على أن تَجمَع البيض، وكان هذا القول عندها أوقع من :قفا نبك من ذِكرَى حبيبٍ ومَنزِلِ"[١].

هنا تبرز قيمة التجربة، فبشار يلتفت إلى السياق القولي الذي يُنجَز فيه الخطاب، ويراعي المقصود بالقول، ويمايز بين أفهام المتلقين،

[١]-الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، تحقيق :د.مي أحمد يوسف:١٠٧-١٠٨.

فالشاعر = البحر، واختياره للفظة (يقذف) تستوقف المتلقي، فهو ينفث شيئاً، ويبقى في مكنونه أشياء أُخَر، وهنا تتنوع التجارب، والمواقف، فتحضر قدرة الشاعر في موازنة مهمة (وضع الجد في موضعه/ ووضع الهزل في موضعه) ثم يلتفت بعد إقرار القاعدة النقدية العامة إلى الأبيات المسؤول عنها، فيطبق عليها ما أقرَّه، فيجد أنَّ أبيات ربابة ملأت نفسها، وأشبعت مشاعرها، واستقبلتها، كما استُقبِلَت معلقة امرئ القيس،في إشارة إلى المقام القولي، ومخاطبة العقول بقدر أفهامها، وكأنَّ بشار يلحُّ على السائل أن يقرأ الأبيات في سياقها الكامل.

ويتجه في أقواله النثرية –أحياناً– إلى القضايا الاجتماعية، ككتابه الذي أرسله إلى أخٍ له، وفيه قال : "أما بعد، فإنَّ أحق ما اغتنمنا حُلوه، وصَبَرْنَا على مُرِّه، واسْتَدَمنَا مكروهه، ونَافَسْنَا فيه أهله، وأحقُّ ما أغْلَقنَا أبوابه ، وصِرْنَا إلى أسبابه، وزَهدْنَا في وُدِّه، ومللنا فجائعَه، الدنيا التي لا يَدوم نَعيمُها، ولا تُؤمن فجائعها، الدنيا التي لا يدوم نعيمها، ولا تُؤمنُ فجائعُها. وقد خبَّر الله تعالى عنها، وكفى به خبيراً، فقال: {إنَّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح} فكتاب الله موعظتُنَا، ورسول الله

أُسوتنا، فأيُّ موعظة بعد كتاب الله، وأيُّ أسوةٍ بعد رسول الله، وقد قال الله تعالى : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}"[١].

إنَّنا إزاء نصٍ مختلف عن طبيعة بشار ، فهو دائم الاستهجان، والاستهزاء، والتنقص، والفحش، وهنا نجد نصاً هادئاً، مكتـــــنــزاً بالحِكَم، متوشحاً بالآيات الكريمة، والمواعظ المتتالية، ويبدو أن الوقوف أمام الموت، وإزاء الفَقْد، جعل بشار يؤوب إلى طبيعة البشر، وحقيقة الإنسان، التي ترى الموت عَالماً غيبياً تحيطه هالات من الخوف والوجل، وينقطع العمل، وتبدأ أولى عتبات الحساب... وعندما يقف الشاعر أمام هذه الحقيقة يخضع لطبيعته، ويستدعي الحقائق، ويستحضر النصوص المقدسة؛ ليسلي نفسه، وغيره ، فكانت رسالته تتمحور حول فكرة (المصير=الموت) والاستعداد له، وهي رسالة تتلاءم والتعازي، وتُسهم في تهوين وَقع المصيبة.

واعتزازه بذاته، وافتخاره بنفسه من المضامين اللامعة في المدونة النثرية التي بين يديَّ، وفَخْرُه يتَّجه إلى قومه وقبيلته-أحياناً- كما في

[١]-البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي :٢٤٢/٢.

سؤال المهدي له : من أيِّ العجم أصلك؟! فيرد بشار باعتزاز : " من أكْثَرِهَا في الفرسَان، وأشَدِّهَا على الأقران أهل طخارستَان"[١].

وأحياناً يعتزُّ بهيبته المستمدة من هالة الهجاء، والإقذاع الذائعة عنه، فهو يرى أنَّها مصدر ترهيب للآخرين، ولذلك يُصور تلك الهيبة بهيبة الأسد، وذلك حين سألته امرأة : "ما أدري لمَ يَهَابُكَ الناس مع قُبحِ وجهِك؟ " فجاء الرد ذكياً حاذقاً دالاً على بديهة حاضرة، وجواب فطن "ليس مِن حُسنِه يُهَابُ الأسد"[٢].

فهو لا يرى للمظهر قيمة في معرفة الرجال، ولا يرى لقبح الخِلْقَة أثراً في نزع المهابة، ويضع إزاء الحالة المستفسر عنها، حالةً مُشَابهة، فالأسد لا يستمد هيبته من شكله، ولازم هذا القول أن بشار كالأسد، فهيبته مستمدة من غير خِلْقَته، وبؤرة النص هي (الهيبة) فالسؤال اتَّجه إليها، والقياس دَارَ عليها أيضاً، ونجاح بشار في إيصال فكرته بجواب مفحم مكثَّف دالٌ على قدرةٍ ذهنية، وملكة أدبية عالية.

وإذا استثير من جليسه، فإنَّ رده يكون قاسياً، ويتجه إلى الفخر الذاتي لإسقاط خصمه، والنيل منه بغروره ، وهذا ماجاء في ردِّه على أبي دلامة حين نَالَ منه، فقال: "...كلا والله ما رأيت رجلاً أصدق على

١-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٣/٢١.

٢-السابق :٣/٣٦.

نفسه، وأكذب على جليسه منك، والله إنِّي لطويل القامة، عظيم الهامة، تَامَ الألواح، أسْجَح الخدَّين..."[١].

ورغبةً في كسب المساحة المتاحة لمثل هذا البحث ، فإني سأنقل الحديث من التوصيف –مع أهميته– إلى الحديث عن بعض المفاصل الفنية في نثر الشاعر، وهل تتقاطع مع سمات شعر الشاعر الفنية، وهذا الموضوع طويل الذيول، لكني سأحاول تحريك الراكد فيه، ولعلَّ من التساؤلات المشروعة السؤال عن ممارسة المبدع لأكثر من فنٍ، وتقاطع السمات الفنية في كل فنونه التي مارسها.

إنَّ المتأمل في شعر بشار، وما ورد إلينا من نصوصه النثرية يقف على بعض ملامح التقاطع، والتباعد، مستحضراً في مقارنة شعره مع نثره ما فطن له النقاد من فروق بين جنس الشعر، وجنس النثر ، فالنثر أدنى إلى العقل، والشعر ألصق بالعاطفة، ولذا دارت المناظرات والمحاورات بين النقاد والعلماء في المفاضلة بينهما، ومن أشهر تلك المناظرات ما أورده التوحيدي ت ٤١٤ هـــ في كتاب الإمتاع والمؤانسة في الليلة الخامسة والعشرين ، وحَوَت حديثا حول مزايا كل فنٍ ، وحدوده، وترجيحه على قرينه، ومن ذلك ما قاله عيسى الوزير مفضلاً النثر : " النثر من قِبَلِ العَقل، والنَّظمُ من قِبَلِ الحِسِّ، ولدخول

[١]–الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني :٣/٢١.

النَّظم في طيِّ الحِسِّ دَخَلَت إليه الآفة، وغَلَبَت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عمَّا لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر"[١].

وفي مقابل ذلك يورد التوحيدي نصوصاً لتفضيل النظم كقول ابن نباته: " من فضل النظم أنَّ الشواهد لا توجد إلا فيه، والحُجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: قال الشاعر، وهذا كثيرٌ في الشعر، والشعر قد أتى به، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة"[٢] .

غير أنَّ بروز الجنس الأدبي متفاوتٌ من عصر إلى آخر، فالشعر بزغ في عصور، وخَفَت في عصور أُخرى، والخطابة كذلك، واليوم رَاج سوق الرواية، وعلا شأو الروائيين، وموضوع دراسة سيادة الأجناس الأدبية خاضعٌ لعوامل عديدة ليس هذا ميدان بحثها، غير أنَّ تفضيل الجنس الأدبي في عصر دون آخر ربما جرَّ الأديب إلى الأنفذ تأثيراً، والأحسن رواجاً.

وقضيةٌ أُخرى تتعلق بجذر الإبداع، والفكر فمرد الإبداع عند الإنسان إلى جذر واحد، وعقل واحد، وعاطفة واحدة، غير أن لكل جنس أدبي مقاصد، وغايات، فقصد الخطيب يختلف عن غاية الشاعر، غير أن منبع

---

١ –الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي :٢٤٨.

٢ –السابق :٢٥٠.

المبدع في تكوينه الثقافي، والفكري، والظروف التي مرَّ بها تبقى –عند تعدد المواهب الإبداعية – من منهلٍ واحدٍ، ويبقى إطار الجنس الأدبي حاكماً عليه، ومهيمناً على تكييف تصوراته، ورؤاه، ومشاعره.

وإذا قارنت نثر بشار بشعره أجد أن ألمع ملامح التقارب والتلاقي بينهما تبزغ –أحياناً– في جذر الفكرة المهيمنة على نصوصه، فهو يجأرُ بالتفاخر بأصله الفارسي، ويستخدم –أحياناً– حجة التحدي "التي تعلن إصراراً على الخروج من إطار صورة الموالي النمطية، ورفض منطق الوصاية الاجتماعية المتمثلة في الولاء العربي، فالشاعر يصدر عن رغبةٍ حادة في رفض التبعية الثقافية، وإعلان انفصاله عن الرموز العربية، واتصاله بالرموز الفارسية"[١] وهذا الموقف المتواتر في الشعر والنثر يكشف عن فكرةٍ متجذِّرة في ذهن بشار تجاه العرب، فكرةٍ متمردة، تستصحب الاضطهاد، والاستصغار، ومرارة المعانة من المجتمع العربي، وتأبى شخصيته المُكَابِرة إلا أن تَتَعالى، وأن ترفع صوتاً فاخِرَاً أمام جمهوره العربي، فيقول مفتخراً بالفرس[٢]:

---

١ –الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد "مقاربة في تحولات الهوية الثقافية " د.هيثم سرحان، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد ١١، محرم ١٤٣٥هـ /نوفمبر٢٠١٣م.

٢ –ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور :١/ ٣٩١.

أنا ابنُ فَرْعَي فـــــارسٍ عَنهَا المحامي العَصِبِ

نحن ذوو التيجان والـــــــ ملك الأشمِّ الأغلب

ويقول أيضاً[١]:

أنا ابنُ الأكْرَمينَ أبَاً وأمَّاً تُنَازِعُني المرَازِبُ من طُخَار

وهذا الفخر عينه تجده في نثره، تجده يفخر بنسبه الفارسي في مجالس الخلفاء والقادة، فحين سأله المهدي من أيِّ العجم أصلك؟ أجاب : " من أكثرها في الفرسان، وأشدِّها على الأقران أهل طخارستان"[٢]. ويبقى هذا الفخر قارًّا في نفسه حتى حين يهاب الموقف، ويخشى من دائرة الفخر الفارسي، كما في قوله : " أمَّا اللسان والزي فعرَبِيَان، وأما الأصل فعجَمي"[٣].

فحين نجد هذا الفخر يتوارد في الشعر والنثر فإنَّ استحواذ الفكرة يؤكد على تربصها في ذهن الشاعر، وأنها مكون من مكونات ثقافته، ونفسيته، فالعمى، والطعن في النسب، ونبذ المجتمع لشخصيته النزقة، المتسلطة ولَّدَت رغبته في الفخر بنسبه، والطعن في منتقصيه، فراح يتغنى بنسبه الفارسي، ويُعَدِّد مآثر الفرس، ويحاذر –أحياناً– من بطش

---

١ –السابق :٣/٢٢٩.

٢ –الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٣/٢١.

٣ –السابق: ٣/٢١.

مجتمعه، فيمزج فخره بما يرضي العرب، كما صنع في قصيدته السالفة حين امتدح قومه الفرس بنصرة النبي –صلى الله عليه وسلم – وكأنه يشير إلى نصرة العباسيين، في محاولةٍ لتخفيف عصبيته الفارسية في مجتمع عربي، بدأ يعاني من الشعوبية، ومن رصدها مثالب العرب.

وباب الحكمة عند باب بشار مشهور معروف، فحكمته الشعرية امتدت إلى عباراته النثرية، فكانت ملمحاً من ملامح التلاقي بين شعر الشاعر ونثره، في دلالةٍ ثابتةٍ على أن تكوين الحكمة عميق في عقل بشار. يقول الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣هـ : "وأمَّا باب الأدب، فشعر بشار مليء حكمةً وأخلاقاً، وضربَ أمثال ؛ لأن بشار نشأ على معرفة الحكمة، وقرأ على الفلاسفة، وقد عُدَّ من نظراء واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد"[١].

وإذا ذُكِر بشار استصحب أرباب الأدب أقواله الشعرية الحكيمة، التي نَعُدُّ منها ولا نُعَدِّدها، من مثل قوله[٢]:

ولا خير في ودِّ امرئ مُتَصَنِّعٍ بماليس فيه والوِدادُ صفاء

...وانِّي لأستبقي بحلمي مودَّتي وعندي لذي الداء الملح دواء

[١] –مقدمة ديوان بشار بن برد :٦١.

٢ – ديوان بشار: ١/١٥٣.

ومَنْ مِنا لا يَذْكُرُ أبياته الشهيرة في المشورة، ومنها[١] :

إذا بَلَغَ الرأي المشُورَةَ فاسْتَعِن برأي نَصيحٍ أو نَصيحة حَازِمِ

ولا تجعل الشُّوْرَى عليك غَضَاضَةً مكانُ الخوافي قوةٌ للقوادم

وفي نثره تلمع الحكم بشكلٍ لافت ، ففي معنى الشورى نفسه يقول بشار مجيباً عن إعجاب الناس بأبياته في المشورة : " إنَّ المُشاورَ بين صوابٍ يَفُوْزُ بثمرته، أو خَطأ يشارك في مكروهه"[٢].

وفي موطنٍ آخر يقول : "لا تَجعَلوا يومنا حديثاً كُلُّه، ولا غناء كُلُّه، ولا شراباً كلُّه، تناهَبُوا العيش تناهُبَاً، وإنما الدنيا فُرَص"[٣].

هذه الحِكَم المتواردة في شعره ونثره تؤكد عمق تجربته الحياتية، وتكوينه الثقافي، وتعلو في أدبه حين يستقر الذهن، ويؤوب الشاعر إلى طبيعته الإنسانية، وهي قوالب عامة تشكَّلت في ذهنه، واستقرت على أنها مسلمات، وخبرات تدور في عقله الباطن، فترددت في نصوصه الشعرية والنثرية بفكرة واحدة في العموم، وبأسلوب متناسب مع احتواء الجنس الأدبي لها.

---

[١] -السابق: ٤/١٧٢-١٧٣.

[٢] -الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني :٣/٢٩

٣-البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي: ٥/٢١٩.

وربما كانت الشكاية من العصر، ونأي الأصدقاء، وتغير الزمن، ونظرة بشار الممتلئة بالشؤم مَعيْنَاً لقول الحكم، تأمل قوله : " لقد عِشْتُ في زمانٍ، وأدركتُ أقواماً لو احتَفَلَت الدنيا ما تَجَمَّلتُ إلا بهم، وإنِّي لفي زمانٍ ما أرى عاقلاً حصيفاً، ولا فاتكاً ظريفاً، ولا ناسكاً عفيفاً، ولا جواداً شريفاً، ولا جليساً طريفاً، ولا من يُساوي على الخبرة رغيفاً "[١].

وبعض الصور تتردد في أدب بشار بشكل لافت، ويبدو أنها تشكلت في ذهنه واستقرت، فكان استدعاؤها قريباً من ذاكرته الأدبية ، ومما وقعت عليه من هذا النوع صورة الأسد التي جعلها موازية ومحاذية لصورته، فيقرن صورته بالأسد في مواطن ليست قليلة، وهذا يؤكد مجدداً ملمح الأنا المتضخمة ، المسيطرة على أدبه، الناجمة عن عقدة العمى، وعقدة النَّسَب، وعقدة الجفاء من المجتمع، وعُقَدٍ أُخرى ربما لا نعلمها، فهو يستبطن مع (الأنا=الأسد) حضارة الفرس، والنيل من العرب[٢]، ويستحضر النقص الخلقي، ويأبى الخنوع والاستصغار فيأتي الأسد بهيمنته المعروفة، وتعاليه المعلوم، ورمزيته الجلية؛ ليحضر في

---

١ –السابق :٢٨/٨.

٢ – الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد "مقاربة في تحةلات الهوية الثقافية " د.هيثم سرحان، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد ١١، محرم ١٤٣٥هـ /نوفمبر٢٠١٣م.

أدب بشار الشعري والنثري بفكرة واحدة، ومدار واحد، تأمل قول بشار[١]:

ولي المَهَابة في الأحبة والعدى وكأنَّني أسدٌ له تَـامُور

ويقول[٢]:

وأرى الناس يَروْني أسداً فيقولون بقَصدٍ وهُدى

فَارضَ بالقسمة من قسَّامِها يُعدم المرء ويغدو ذا ثرا

وحين يمدح عقبة بن مسلم يجد صورة الأسد هي أوفى الصور للوفاء بمدحه، فيقول[٣]:

أسدٌ يُوقِدُ نيران الوَغَى وإذا زَلزَله الروع وَفَر

وحين أقبلت عليه امرأة ورأت هيئته القبيحة بادرته بقولها: "ما أدري لِمَ يَهَابُكَ النَّاس مع قُبْحِ وجهك" فكانت صورة الأسد حاضرة في ذهن

---

١ –ديوان بشار :٣/٢٩٦.

٢ –السابق:١/١٥٨.

٣ –السابق:٣/٢٩٤.

بشار حضوراً جعل للجواب وقعاً مُفحماً، فقال: "ليس من حُسنه يُهَابُ الأسد"[١].

ولعلَّ الخطاطة الآتية توضح مدار هذه الصورة في أدب بشار:

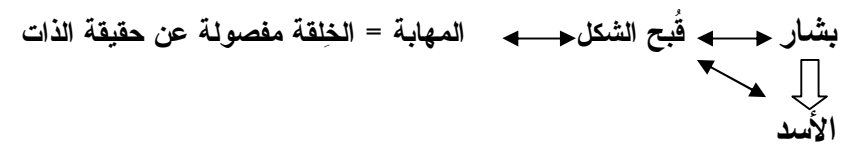

و(غراب البين) برمزيته الشهيرة يحضر في أدب بشار الشعري والنثري، وعلاقة الغراب بالسحر والشعوذة في أساطير الوثنين معلومة مشهورة، ومع الغراب يحضر السواد، والاقتران بالموت، والصوت النَّشَاز، حتى ربط العرب بينه وبين التشاؤم ، وسوء الطالع ، فقالوا : "أشأمُ من غُرَابِ البَيْنِ"[٢] ومن تشاؤمهم بالغراب "اشتقوا من اسمه الغُربة، والاغتراب، والغريب"[٣] فكان الغراب رمزاً قاتماً في حياة العرب، وفاضت كتاباتهم بهذا الشعور، ولم يَعدُ بشار هذا الشؤم في شعره ونثره، من ذلك قوله[٤]:

نَعَقَ الغُرابُ فخنَّقتني عبرةٌ وبكيتُ مِن جَزَعٍ على الأصحاب

١-الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني:٣/٣٦.

٢ -مجمع الأمثال ، للميداني :٢/١٩٤.

٣ السابق:٢/١٩٥.

٤ -ديوان بشار :٣/٢٤١.

يارِبَّ قائلةٍ- وغُيبَ عِلمُها- ماذا يَهيجك من نعيقِ غُرابِ

وحين نزل قومٌ من أعراب قيس قرب البصرة ، وكانوا أهل بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم، وينشد شعره، ويجلس مع نسائهم، فارتحلوا ، ولم يعلم بشار برحيلهم، فجاءه أبان بن عبدالحميد اللاحقي ، فأبلغه، ولم يكن يعلم برحيلهم، فقال بشار[١] :

دعا بفراق مَن تَهوى أبان ففاض الدمعُ واحترق الجنان

كأنَّ شرارةً وقعت بقلبي لها في مقلتي ودمي استنان

فبلغ ذلك أبان، فقال لبشار: "يا أبا معاذ، ماذنبي إليك؟! قال: ذَنْبُ غراب البَيْن.."[٢].

فغراب البَيْن أيقونة للشؤم والفراق والنأي، والاصطلاح على هذا لا يعني أنَّ الغراب له ذنبٌ في رمزيته ، وهذه المقايسة دالةٌ على أنَّ رمزية الغراب السلبية قارَّة في ذهن بشار، وأن قرارتها تنبعث في أدبه، من دون نظر إلى نوع الجنس الأدبي.

ونقترب أكثر حين نجد تكرار الأساليب في الشعر والنثر على السواء، فضمير المتكلم (أنا) علامة في أدب بشار،وسبق أن عرضت لفخره

---

١ –انظر : الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني :٣/٥١.

٢ –السابق: ٣/٥١.

بالفرس، وشعوره بعقدة النقص الخَلقي، والنفور المجتمعي، فوجد في فخره بثاً لما في خاطره، وتنفيساً لعُقَدِه، والأنا في أدبه، –وإن كانت بصيغة المفرد– إلا أنها تستصحب سيرة الفرس كلهم، فعند حضور ضمير المتكلم، يحضر اعتزازه بفارسيته، وأصله ، ويطوي استصحاب الفرس لمزاً بالعرب، وحضارتهم.

وصيغةٌ أُخرى تتكرر في أدبه هي صيغة القسم، فهو حين يفخر بنفسه يقول: " والله إني لطويل القَامة، عظيم الهامة، تامُّ الألواح أسْجَح الخدين"[١].ويقسم في شعره كثيراً ، كما في قوله[٢]:

والله مالي منها إذا ذُكِرَت إلا اسْتِنَانُ الدموعِ والطَّرَبُ

وهذه الصيغ تمثل لازمة عند الأديب، تجري على لسانه كما تجري بعض اللوازم الأسلوبية على لسان الإنسان في مواطن عديدة من حديثه، وربما كانت غايات التأكيد التي استخدمها كثيراً أمام خصومه، ومنتقديه مستدعية لمثل هذا الأسلوب المتدثِّر بقدسية الدين، فالمقسم لا يكذب، ولو كذب فللكذب تبعات في الدين مشهورة معلومة .

كما استوقفتني بعض الأساليب المتواردة في أدب بشار من مثل استخدام (إن) المؤكدة في مطلع أبياته، وبعض أقاويله النثرية، في رغبة

---

[١] –السابق: ٣/٢١.

٢ –ديوان بشار : ١/٢١٧.

منه لاستجلاب شحنة كبيرة من التقرير والتوكيد على قضية مسلمة في ذهنه، وهو الأديب الذي تشبَّع بأفكارٍ ربما لم ينسجم جزء منها مع مجتمعه، وربما وجد في بعض التجارب حكماً أراد أن يبثها بصيغة التأكيد والتقرير . تأمل في قوله[١]:

إنَّ قلبي مثلُ الجناحِ إذا من باتَ يدعو وأنتَ غيرُ مُجيب

وقوله[٢]:

إنَّ المُحبَّ تَلِينُ شوكَتُهُ يوماً إذا ما عزَّ صاحِبُهُ

وقوله[٣]:

إنَّ في الحشر والحِسَاب لشُغْلاً عن وقوفٍ بكل رسمٍ مُحِيل

ويقول نثراً : "إنَّ الشاعر بمنزلة البحر يقذِفُ بحوتٍ وصدفه، وحيَّة، فإنَّما القدرة على الشعر أن تضع الجدَّ في موضعه، والهزل في موضعه..."[٤].

---

١ –السابق: ١/٢٢٤.

٢ –السابق :١/٢٤٣.

٣ –السابق:٤/١٥٢.

٤ –الأجوبة المسكتة :١٠٧.

فالمسلماتُ الفكرية عند بشار، مع قوة شخصيته، وحدة ذكائه ، وتنوع قناعاته جعلته يستخدم هذا الأسلوب التأكيدي في مطلع أبياته، وأقاويله، وفيه دلالة على هيمنة بعض القوالب الأسلوبية على ذهن الأديب بشكل يجعل استخدامها متواردا في أجناسه الأدبية.

وفكرة الموت من الأفكار التي ترددت في ذهن بشار، فالموت هو "التهديد المستمر في وجدان الإنسان لوجوده، فتصبح الحياة كفافاً ضد تجارب الموت"[١] وفي عقيدة المؤمن أن الموت ليس نهاية المطاف، فبعد الموت حياة البرزخ، ثم الحياة الأبدية، وهنا يكمن الخوف من المصير، ويتردد الإنسان بين الرغبة في ملذات الدنيا، والوجل من حساب الآخرة، ولذا تبزغ فكرة الموت عند بشار في معرض استفهام، واستفسار، وتأنيب في عودة للنفس البشرية إلى طبيعتها، حيث يقول: "فإنَّ أحقَّ ما اغتنمنا حلوه، وصبرنا على مُرِّه، واستدمنا مكروهه، ونَافسنا فيه أهله، وأحقُّ ما أغلقنا أبوابه، وصرمنا أسبابه، وزهدنا في ودِّه، وملَلنا فجائعه الدنيا، التي لا يَدُومُ نعيمها، ولا تُؤمنُ فجائعها..."[٢].

والفكرة نفسها تحضر في شعره، فيقول[٣]:

---

١ –الحياة والموت في الشعر الأموي، د.محمد بن حسن الزير:٧١.

٢ –البصائر والذخائر:٢/٢٤٢.

٣ –ديوان بشار:١/١٩٢.

أين الذين تَزُروكلَّ عشيةٍ يأتيك آدبهم وإنْ لم تَـأدب

ذَهبوا وأمسى مَاتَذَكَّرُ منهم هيهات مَن قد مَاتَ ليس بذَاهِبِ

يقول ابن قتيبة ت ٢٧٦هـــ عن بشار : " ويرمى بالزندقة ،وهو مع ذلك يقول:

إنَّ في البعث والحساب لشُغْلاً عن وقوفٍ برسم دارٍ مُحِيل"[١]

إنَّ بشار يتذكر في أوقات صفاء الذهن بعض ملامح المجون والاستهتار ، وهتك الأستار، والفحش القولي، فيؤوب إلى رشده، ويستيقظ من غفلته، ويرى في الحياة من أقاربه، ومجتمعه من تخطفه المنية، فكان هاجس الموت هاجساً يمر بذهنه دون انقطاع، فكان حضور الموت حضوراً ذهنياً يمثل فكرة لا تنقطع، وتحضر في إبداعه شعراً ونثراً.

وعندما أبحث عن التقاطع والتباعد بين الشعر والنثر عند بشار أجد أنَّ ظواهر عديدة تحضر شعراً، ولا تحضر نثراً، وربما العكس، وهذا يُؤكد مجدداً أنَّ للشعر طبيعة، وخاصية ليست للنثر، وأن هذه الخاصية لا تقصي النثر عن الأدبية، وقديماً يقول الفارابي ت٣٣٩هـــ: " القول إذا كان مؤلفاً مما يُحاكي الشيء، ولم يكن موزوناً بإيقاع، فليس يعد شعراً،

[١] –الشعر والشعراء، لابن قتيبة ، تحقيق: أحمد محمد شاكر :٢/٧٥٧.

ولكن يقال: هو قولٌ شعري. فإذا وزن-مع ذلك-وقسِّم أجزاء صار شعراً، فقوام الشعر، وجوهره عند القدماء أن يكون مؤلفاً ما يُحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء يُنطَق بها في أزمنةٍ متساوية، وثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام الشعر وجوهره، وأعظم هذين في قوام الشعر هو المحاكاة، وعلم الأشياء التي بها المحاكاة، وأصغرها الوزن..."[١].

إن خصائص الأجناس الأدبية تجعل للجنس الأدبي نمطاً، وخصيصة ليست للأخرى "وهذا الاختلاف بين الأجناس يؤدي إلى اختلاف في المقاييس المعتمدة في كل جنس. فبعض الأجناس يبرز المقاييس الشكلية، وبعضها يولي المقاييس الخطابية كل الأهمية. وقل مثل ذلك في المقاييس الوظيفية والغرضية والإيدلوجية"[٢].

وللدكتور زكي مبارك كلام نفيس حول صياغة الشعر والنثر، وتمايز كل لون عن الآخر حيث يرى " أن الموضوعات هي التي تُحَدِّد نوع الصياغة، فليس ينبغي أن يُفترض أنَّ الشعر صالحٌ لكل موضوع، ولا أنَّ النثر صالحٌ لكل موضوع، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر،

---

١ -جوامع الشعر ضمن تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر تحقيق :محمد سليم سالم:١٧٢.

٢ -الخبر في الأدب العربي "دراسة في السردية العربية" د.محمد القاضي:٢٨.

ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر"[١] ثم يقول : " إذا كان موضوع القول متصلاً بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب؛ لأنَّ لغته أقدر على التأثير والإمتاع، وإذا كان الموضوع متصلاً بأعمال العقل، والفهم، والإدراك كان النثر أوجب؛ لأنَّ لغته أقدر على الشرح، والإيضاح، والإفهام والتبيين، والإقناع"[٢].

وإذا رجعت إلى المقارنة بين شعر بشار ونثره، وجدت بعض المظاهر تبدو في طرف دون آخر ربما لأن إطار الفن، وطبيعته متفاوتة مختلفة، كما في إشارة الدكتور زكي مبارك، وقد وجدت أن بشاراً يستخدم الآيات القرآنية في نثره دون شعره، وبدا التناص القرآني ملحوظاً في النثر، ولم أجده لافتاً في الشعر إلا في نزرٍ قليل لا يكاد يُذكر، كما في قوله[٣]:

يكفيك أنَّ التُّقَى أيْدٌ يَفُوْزُبه والفسقُ ذلٌّ فلا يُعْدَل بتأييد

فـ (أيْد) تحيل إلى قوله تعالى : {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون}[٤] فالأيد هي القوة ، فأثر القرآن بازغٌ في البيت، غير أن نثره تزيَّن بآيات قرآنية على مستويات متفاوتة من التفاعل، والتوظيف، كما

---

[١] –النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك:٢٧.

[٢] –السابق:٢٨.

٣ –ديوان بشار بن برد:٣/١٥٥.

٤ –سورة الذاريات :٤٧.

في قوله: "صحَّ والله الخبر، ونُشِرَ أهل القبور من قبورهم،أزفت الآزفة، وزلزلت الأرض زلزالها"[١].

وأحيانا يورد الآية بنصها في رغبة منه في الاستشهاد، ودعم الفكرة، كما في قوله: الدنيا التي لا يدوم نعيمها، ولا تُؤمنُ فجائعُها. وقد خبَّر الله تعالى عنها، وكفى به خبيراً، فقال: {إنَّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح} فكتاب الله موعظتُنَا، ورسول الله أُسوتنا، فأيُّ موعظة بعد كتاب الله، وأيُّ أسوةٍ بعد رسول الله، وقد قال الله تعالى : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}"[٢].

ويبدو أنَّ النثر أدنى إلى الرغبة في الإقناع، والتفصيل في القول، وهو ميدانٌ تستكين فيه العاطفة، ويقترب إلى العقل، ووجد فيه بشار فرصة للإسهاب في بعض المواقف التي تستدعي الحجة، وتستقرض الدليل، فكان الاستشهاد القرآني حاضراً، وكاشفاً عن حفظ بشار لآيات منه، وتمعنها، والتفاعل معها حتى أجاب حين سئل "أي شيء تتمنى له

---

١ -الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٣/٣٠.

٢-البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي :٢/٢٤٢.

البصر؟ قال: السماء؛ لقول الله تعالى: {وزينا السماء الدنيا بمصابيح}[١] وما زيَّنه اللهُ ووَصَفَه يجب أن يكون حَسَنَاً"[٢] .

ولست –هنا– في معرض حصر أوجه التباعد بين شعر بشار ونثره، ففي شعره ظواهر كثيرة لا تبدو في نثره، كما في حواره الداخلي الكثيف في أبياته الشعرية، فتجده يفترض حواراً يُكثِر فيه القول والجواب، وهي مخاطبات تشي بحديث نفسي ربما كان من أسبابه: عزلة الشاعر، وجفوة مجتمعه، كما أن الحوار وسيلة من وسائل الشعراء في التشويق، وتفريغ ما في النفس بطريقة غير مباشرة ، كما في قوله [٣]:

يقولون: لو عزَّيْت قلبك لارْعَوى فقلت :وهل للعاشقين قلوب

فقلت: حمام الأيك مالك باكياً أفارقتَ إلفاً أم جفاكَ حبيبُ

ويقول[٤] :

أقول لقلبٍ ليس لي غير أنَّه لما شئت من شوقٍ إليَّ جلوب:

ألا أيها القلب الذي أدبرت به سعادُ بني بكرٍ ألَستَ تُنِيبُ

---

١ –سورة فصلت :١٢.

٢ –البصائر والذخائر:٥/٢١٩.

٣ –ديوان بشار: ١ /٢١٣.

٤ –السابق : ١/٢١٣.

إنَّ ظاهرة نثر الشاعر ظاهرة تحتاج لمزيد من الدراسة والتحليل، وهي ظاهرة تنبع من موطن الإبداع الواحد، وتعالج المواهب المتكافئة في الإبداع، وهل يتميز المبدع في فنٍ دون سواه، وهل يراعي الظروف المواتية، والمجتمع المحيط، والذوق السائد ، وهل الفنون النثرية تروج في عصرٍ دون عصر من خلال الظروف المحيطة...

إن بشاراً مثل أنموذجاً من نماذج الشعر الباذخ في العصر العباسي، وارتبط اسمه بالشعر، غير أن مدونات الأدب القديمة أثبتت أنه متعدد الفنون، وأنَّ له نثراً فاق به أقرانه، واحتفت به دواوين النثر القديمة، وأن رؤاه الشعرية، وصوره الفنية لم تبتعد عنه حين نطق نثراً، أو كتب رسالة، وبدا في نثره إحساسه المتجذر بالموسيقا الشعرية، وحسن تقسيمه ، وانتقاء ألفاظه، وأصل هذا كله هو كما قال ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ أنه أديب مطبوع[١]، لا يتكلف، ولا يتصنع، وفاق سواه بثقافته الواسعة، ومعرفته الكبيرة .

إنني لأبتغي بمقالتي هذه فَتْحَ شهية الدارسين والنقاد إلى مزيد من العناية والاحتفاء بهذه الظاهرة الأدبية في أدبنا القديم والحديث، وهي مرتبطة بتفاضل الأجناس الأدبية في كل عصر أدبي، وفي انتقاء مدونات الأدب لجنس دون آخر، وقبل ذلك ترتبط بتكوين الإبداع في ذهن الأديب،

١ –انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة :٢/٧٥٧.

وهل الموهبة الأدبية تتعدد في الأدب؟ وهل باب الفن واحد؟ ولعل هذه المقالة أثبتت أن تعدد المواهب متواتر عند الأدباء، وربما اتسع الأمر فوجدت الأديب رسَّاماً ، أو خطاطاً... وهذه ظاهرة أوسع تستحق العناية والدراسة.

أبرز المصادر والمراجع:

- الأجوبة المسكنة، لابن أبي عون، تحقيق : د.مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنســـــانية والاجتماعية-القاهرة ، ط:١ ، ١٩٩٦م.
- الأغاني، لأبي فرج الأصبهاني، تصحيح: الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم ، د.ت.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، ضبط:خليل المنصور، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- أمين نخلة شاعر النثر (مقالة) جهاد فاضل، جريدة القبس الكويتية،العدد ١٤٨٣١، ١١ أغسطس ٢٠١٤م.
- بدوي الجبل بين الشعر والنثر (مقالة) عبداللطيف الأرناؤوط، مجلة الباحثون، العدد ٤٠ تشرين الأول ٢٠١٠م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل-بيروت، د.ت.
- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي،تحقيق وداد القاضي،دار صادر-بيروت، ط:١ ، د.ت.
- البواعث النفسية في هجاء بشار بن برد، معتز قصي ياسين،بحث منشور في مجلة دراسات البصرة، العدد ١٥، ٢٠١٣م.

- حديث الأربعاء، طه حسين ، دار المعارف، ط:١٢،د.ت.
- الحياة والموت في الشعر الأموي، د.محمد بن حسن الزير،دار أمية-الرياض، ١٩٨٩م.
- الخبر في الأدب العربي "دراسة في السردية العربية" د.محمد القاضي، منشورات كلية الآداب منوبة-تونس، ط:١، ١٤١٩ه - ١٩٩٨م.
- الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد "مقاربة في تحولات الهوية الثقافية " د.هيثم سرحان، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد ١١، محرم ١٤٣٥هـ /نوفمبر٢٠١٣م.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق :محمد الطاهر بن عاشور،منشورات وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٧م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري، ضبط: د.زكي مبارك،دار الجيل-بيروت، ط:٤، د.ت.
- شرح المعلقات التسع، لأبي عمرو الشيباني ويليه معلقة الحارث اليشكري، تحقيق: عبدالمجيد همّو، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت، ط:١، ١٤٢٢ه/٢٠٠١م.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق :أحمد محمد شاكر، دار المعارف، د.ت.

- العراق في القلب، د.علي القاسمي، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء، ط:٤٠٠٢،١م.
- العقد الفريد ،لابن عبدربه تحقيق عبدالمجيد الترحني، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:١،د.ت.
- فحولة الشعراء، للأصمعي، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار القلم للتراث-القاهرة، د.ت.
- الكامل ، للمبرد، تحقيق: أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط:١٤١٣،٥٢/١٩٩٣م.
- مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الجيل-بيروت،١٤١٦ه/١٩٩٦م.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١٤١٥،١ه/١٩٩٥م.
- نثر أمير الشعراء وموقعه من ثقافته وعصره، د.أحمد درويش، مجلة العربي ، العدد ٦٤٧، سبتمبر ٢٠١٢م
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، المكتبة العصرية-صيدا، د.ت.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق:يوسف الطويل، ومريم الطويل،دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١٤١٩،١ه/١٩٩٨م.